الرسالة اللدنية

تأليف
الإمام حجة الإسلام
أبى حامد الغزالى

اعتنى به وحققه
أبو سَهْلٍ
نجاح عوض صيام

المقطم للنشر والتوزيع

الرسالة اللدنية

تأليف

الإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمد بن

محمد الغزالي الطوسي

(المتوفى ٥٠٥هـ)

اعتنى به وحققه

أبو سهل

نجاح عوض صيام

بطاقة فهرسة
أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ١٠٥٨ - ١١١١
الرسالة اللدنية/ تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي؛
اعتنى به وحققه: نجاح عوض صيام
ط١- القاهرة: دار المقطم للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
٦٤ ص، ١٢ سم.
تدمك ٨ ٠٦٠ ٤٧٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الفلسفة الإسلامية ٢- التصوف الإسلامي
أ- صيام، أبو سهل نجاح عوض (محقق)
ب- العنوان ١٨٩

رقم الإيداع: ٢٢٨٨٢
الترقيم الدولي: 978-977-478-060-8
دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت: ٢٧٩٥٨٢١٥ - ٢٧٩٤٦١٠٩ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٢٥٠٨٢٢٢٢ (٠٠٢٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكمل الخلق أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه الغرُّ الميامين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩] أي نورا في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. قال ابن جُزَي: وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة.

قال الألوسي في تفسير قوله تعالى في شأن الخضر عليه السلام ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥]:

هو العلم الخاص الذي لا يُعْلم إلا من جهته تعالى، وقال ذو النون: العلم اللدني هو الذي يحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

وقال الجنيد قُدِّس سره: هو الإطلاع على الأسرار من غير ظن فيه ولا خلاف واقع، لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات ويحصل للعبد إذا حفظ جوارحه عن جميع المخالفات وأفنى حركاته عن كل الأردات وكان شبحًا بين يدي الحق بلا تمني ولا مراد، وقيل: هو علم يُعرِّف به الحق سبحانه أولياءه ما فيه صلاح عباده . وقال بعضهم: هو علم غيبي يتعلق بعالم الأفعال، وأخصّ منه الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة، وأخص منه علم الذات. اهـ

وقال ابن عجيبة -رضي الله عنه- عند تفسير هذه الآية أيضًا:

العلم اللدني: هو الذي يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم ، قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل بما عَلِمْ أورثه الله عِلْم ما لم يعْلَم» وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والرذائل، وتفرغه من العلائق والشواغل، فإذا كمل تطهير القلب، وانجذب إلى حضرة الرب، فاضت عليه العلوم اللدنية، والأسرار الربانية ، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول ، بل تسلم لأربابها ، من غير أن يقتدي بهم في أمرها، ومنها ما تفيض عليهم في جانب علم الغيوب كمواقع القدر

وحدوث الكائنات المستقبلة، ومنها ما تفيض عليهم في علوم الشرائع وأسرار الأحكام، ومنها في أسرار الحروف وخواص الأشياء، إلى غير ذلك من علوم الله تعالى. وبالله التوفيق. أهـ.

قلت: وهذا العلم نوع من أنواع الكرامات التي أكرم الله بها عباده الصالحين من أولياء الله المتقين، وللإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام نفيس في هذا المعنى ضمن كلامه عن المعجزات والكرامات- في مجموع الفتاوى- حيث قال -رضي الله عنه-:

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات، وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، ويسمونها الآيات، لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة..

ثم قال: فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظةً ومنامًا، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحْيًا وإلهامًا، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة؛ ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات،

فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة ؛ ويسمى ذلك كله كشفًا ومكاشفة أي كُشف له عنه.أهـ

وقد ألف الإمام أبو حامد الغزالي(ت ٥٠٥ هـ) رحمه الله تعالى «الرسالة اللدنية» التي بين أيدينا ردًا على من أنكر العلم اللدني وادعى انحصار العلوم في العلوم الرسمية؛ تكلم فيه عن حقيقة العلم اللدني، وأسباب حصوله، كما تكلم فيه أيضا عن شرف العلم، وأنواع العلوم وأقسامها وكيفية تحصيلها ، ومراتب النفوس في تحصيلها. وهي رسالة لطيفة الحجم عظيمة النفع، أشار إليها الإمام فخر الدين الرازي في كلامه عن العلم اللدني عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥]. بقول: يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات: العلوم اللدنية، وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللدنية. اهـ

ولأهمية هذه الرسالة وعظيم نفعها رأت دار المقطم إعادة نشرها ، فقمت بتخريج الآيات الكريمة من مواضعها من المصحف الشريف، والأحاديث الشريفة من مصادرها الأصلية من كتب السنة المطهرة ، وضبط ما أشكل بها من ألفاظ وشرح الغريب منها، والتعليق عليها

بما يلزم ويقتضيه المقام، كما قمت أيضا بعمل ترجمة للمؤلف -رضي الله عنه- وأرضاه. وقد اعتمدت على النسخة المطبوعة بمكتبة الجندي سنة ١٩٧٠م بعناية العلامة الشيخ محمد مصطفى أبو العلا رحمه الله تعالى.

هذا والله أسال العون والمدد والتوفيق، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الله الكريم، وأن يهدي به إلى صراطه المستقيم ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

أبو سهل

نجاح عوض صيام

عفا الله عنه

المنصورة في رجب ١٤٣١هـ

الموافق يونيه ٢٠١٠م

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه:

هو الإمام الفقيه الحجة المجتهد زين الدين محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، الطوسي، الشافعي، حجة الإسلام والمسلمين، وإمام أئمة الدين، -رضي الله عنه- وأرضاه.

مولده ونشأته:

ولد -رضي الله عنه- سنة ٤٥٠هـ في - طوس- وكان أبوه رجلًا صالحًا عفّ القلب واليد، يغزل الصوف ويبيعه، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم، والفقهاء في دروسهم، والوعاظ في مجالسهم؛ يستمع إليهم ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة، ويلاطفهم بما يفضل من قوته وحاجته.

وتأثر الوالد بهذه المجالس تأثرًا عظيمًا، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولدًا من صلبه يجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يعلمون الناس أمور دينهم.

واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين،

أحدهما: أبو حامد الذي نتكلم عنه:

والآخر: أخوه أحمد، الذي اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة.

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح: وصّى بأبي حامد وأخيه صديقًا له، متصوفًا، من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفًا عظيمًا على ما فاتني من التعلم، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديَّ هذين، فعلِّمهما، ولا عليك أن ينفد في ذلك جميع ما أُخَلِّفه لهما.

وأنفذ الصوفي وصيته، وأقبل على تعليمهما، حتى فنى المال القليل الذي تركه أبوهما، وتعذر عليه المضي في تعليمهما أو تقديم الطعام الذي يقتاتان به، ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما، إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التي تقدم لطلاب العلم الغذاء والكساء.

وقد أحسن الرجل بذلك صنعًا إلى هذين اليتيمين اللذين لا عائل لهما ولا مال يعنهما على الحياة. وكان هو السبب في سعادتهما، وعلو درجاتهما.

فكان أبو حامد- صاحب الترجمة- أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، شهد له بذلك الموافق والمخالف. وكان أخوه أحمد واعظًا كبيرة القدر، صاحب كرامات وإشارات.

ولذلك كان الإمام الغزالي -رضي الله عنه- يقول وهو يذكر صنيع ذلك الرجل: طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله، ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش يجري عليهما بسببه ما يجري على طلبة العلم، فكان أن أوصلهما إلى الغاية الحقيقة من طلب العلم، وهي معرفة الله حق معرفته.

طلبه للعلم:

قرأ الإمام الغزالي في صباه طرفًا من الفقه، ببلده، على: الإمام أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان فأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد، حتى برع في المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين، والمنطق وقرأ الحكمة، والفلسفة وأحكم على ذلك. وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد على مبطليهم، وإبطال دعاويهم. وصنف في كل فن من هذه العلوم كتبًا، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان -رضي الله عنه- شديد الذكاء، شديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك مِحْجاجًا، وصفه شيخه إمام الحرمين: بالبحر المغدق.

ولما مات إمام الحرمين: خرج الغزالي إلى المعسكر قاصدًا الوزير نظام الملك، إذ كان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد، وأمره بالتوجه إليها.

فقدم بغداد في سنة ٤٤٨ للهجرة ودرس بالنظامية، وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه.

فأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدة، عظيم الجاه، زائد الحشمة عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال.

الغزالي والبحث عن الحقيقة:

يقول الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال:

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل علمهم: قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتجليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل؛ فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكّي -رحمه الله- وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرّقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدّس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام المشايخ، حتى اطّلعت على كُنْه مقاصدهم العلميّة، وحصّلت ما يمكن أن يُحصّل من طريقهم بالتّعلم والسّماع، فظهر لي أن أخصّ خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حدُّ الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها، وبين أن يكون صحيحا وشبعان. وبين أن يعرف حد السُّكْر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران. بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء، والصاحي يعرف حد السكر، وأركانه وما معه من السكر

شيء، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة.

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقينا : أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل له بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك..

ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي -وأحسنها التدريس والتعليم- فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافي الأحوال ..

ففارقت بغداد، وفرّقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصًا بأن مال العراق مُرصد للمصالح،

لكونه وقفًا على المسلمين، فلم أر في العالَم ما لا يأخذه العالِم لعياله، أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريبًا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة، والخلوة، والرياضة، والمجاهدة: اشتغالًا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج، واستمداد من بركات مكة، والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ، بعد الفراغ من زيارة الخليل، صلوات الله عليه. فسرت إلى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه.

فآثرتُ العزلة به أيضا، حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير في وجهة المراد، وتُشوِّش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين.

وانكشف لي في أثناء هذه الخطوات أمور، لا يمكن إحصاؤها، واستقصاؤها.

والقدر الذي أذكره لينتفع به: إني علمت يقينًا إن الصوفية: هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وإن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق.

بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سِيرَهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم -في ظاهرهم وباطنهم- مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة: فماذا يقول القائلون في طريقة: طهارتها -وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.

ومفتاحها- الجاري منها مجري التحريم من الصلاة- استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها الفناء بالكلية في الله؟

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها.

وهي -على التحقيق- أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول مُعبِّرٌ أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة: الاتحاد، وطائفة: الوصول . وكل ذلك خطأ.

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب «المقصد الأسنى».

مؤلفاته:

لقد أسرى الإمام الغزالي -رضي الله عنه- المكتبة الإسلامية بالعديد من مؤلفاته المفيدة في كل علم وفن من فنون العلم والمعرفة ، التي تدل على براعته وإمامته وعلو منزلته بين العلماء العاملين وأئمة الدين المتقين ،ومن هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر :

١- إحياء علوم الدين .

٢- المنقذ من الضلال .

٣- الاقتصاد في الاعتقاد.

٤- ميزان العمل.

٥- بداية الهداية.

٦- القسطاس المستقيم.

٧- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٨- تهافت الفلاسفة.

٩- معيار العلم.

١٠-المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

١١-البسيط.

١٢-الوسيط.

١٣-الوجيز . وهي في الفقة.

١٤-المستصفى في أصول الفقه .

١٥-المنخول في أصول الفقة أيضا.

١٦-كيمياء السعادة.

١٧-جواهر القرآن.

١٨-ياقوت التأويل في تفسير التنزيل، في أربعين مجلدًا -مخطوط-.

١٩- منهاج العبادين.

٢٠-الأربعين في أصول الدين.

٢١-مشكاة الأنوار.

٢٢-الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

٢٣-إلجام العوام عن علم الكلام.

نبذة من حِكَمِه وأقواله:

- من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحقَّ تعرف أهله.

- التوحيد أن ترى الأمور كلها من الله.
- من لم يكن له نصيب من علم الباطن، أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه: التصديق وتسليمه لأهله، ومن كان فيه خصلتان لم يُفتح له من العلم بشيء: بدعة أو كِبر.
- السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة أن تملكه نفسه.
- ليس الورع في الجبهة حتى يُقطَّب، ولا في الخدِّ حتى يُصعَّر، ولا في الظهر حتى يُحنأ، ولا في الرقبة حتى تُطأطأ، ولا في الذيل حتى يُضم، إنما الورع في القلوب، أمّا من تلقاهِ بِبشْرٍ فيلقاك بعبوس، يمن عليك بعمله، فلا أكثر الله في المسلمين من مثله.
- المستقل بنفسه بغير شيخ، كشجرة تنبت بنفسها، فإنها تجف عن قرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر.

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام السبكي في طبقات الشافعية في ترجمته الحافلة للإمام الغزالي:

.. أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرّز في المنقول منها والمفهوم.. جاء والناس إلى رد فِرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجلاد مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يُلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العُرى، وانكشفت غياهب الشبهات..

وقال ابن النجار فيما نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء:

أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، مجتهد أوانه، وعين أوانه.

- ووصفه شيخه إمام الحرمين: بالبحر المغدق.
- وقال تلميذه الإمام محمد بن يحيي: الغزالي هو الشافعي الثاني.
- وقال معاصره عبد الغافر الفارسي، خطيب نيسابور:

أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، وإمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله، لسانًا، وبيانًا، ومنطقا، وخاطرًا، وذكاء، وطبعا... قدم نيسابور مختلفا إلى درس إمام الحرمين، في طائفة من الشبان من طوس، وجدّ،

واجتهد حتى تخرج عن مدة قريبة، وبذ الأقران... وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمصير إلى بغداد، للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها، فصار إليها، وأعجب الكل بتدريسه، ومناظرته، وما لقي مثل نفسه، وصار بعد إمامة خُراسان إمام العراق... وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة.

* وقال الإمام النظار أسعد الميهني (ت٥٢٠هـ) : لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه ، وساد في شبيبته، حتى أنه درس بالنظامية ببغداد وسنه أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رءوس العلماء، وكان ممن حضر عنده: أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رءوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته وإطلاعه، - قال ابن الجوزي – وكتبوا كلامه في مصنفاتهم.

وفاته:

.. واستمر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في رحلته إلى الشام وزيارة بيت المقدس وغيرهما، نحو عشر سنوات، وكان فيها- كما يقول

الإمام السبكي-: يجول في البلدان ويزور المشاهد، ويطوف على المساجد، ويأوي إلى القفار، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار، ويكلفها مشاق العبادات، بأنواع القُرَب والطاعات، إلى أن صار قطب الوجود، والبركة العامة لكل موجود، والطريقة الموصلة إلى رضا الرحمن، والسبيل المنصوب إلى مركز الإيمان؛ رجع إلى بغداد، وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة، وحدّث بكتاب -الإحياء- ثم عاد إلى خراسان، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة، وكل قلبه معلق بما فتح عليه من الطريق. ثم رجع إلى طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء، وخانقاه للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف، من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ورضوانه، طيب الثناء، أعلى منزلة من نجم السماء، لا يكرهه إلا حاسد أو زنديق، ولا يسومه بسوء إلا حائد عن سواء الطريق، وكانت وفاته -قدس الله روحه- بطوس يوم الاثنين، رابع عشر جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ومشهده بها يزار بمقبرة الطابران.

مصادر الترجمة

١- المنقذ من الضلال (ص٥٩-٦٥).

٢- المنتظم لابن الجوزي (٩/ ١٦٨).

٣- سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢).

٤- طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩١).

٥- البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ١٧٣).

٦- وفيات الأعيان(٤/ ٤١٦).

٧- مرآة الجنان (٣/ ١٤٥).

٨- طبقات الصوفية للمناوي (٢/ ٢٩١).

٩- شذرات الذهب(٤/ ١٣).

١٠- الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢).

١١- مقدمة إحياء علوم الدين للدكتور بدوي طبانة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد للّٰه الذي زين قلوب خواصّ عباده بنور الولاية، وربى أرواحهم بحُسن العناية، وفتح باب التوحيد على العلماء العارفين بمفتاح الدراية، وأصلي وأسلم على سيّدنا محمّد سيّد المرسلين صاحب الدعوة والرعاية، ودليل الأمة إلى الهداية، وعلى آله سُكّان حرم الحماية. اعلم أن واحداً من أصدقائي حكى عن بعض العلماء أنه أنكر العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه خواصّ المتصوفة، وينتمي إليه أهل الطريقة، ويقولون: إن العلم اللدني أقوى وأحكم من العلوم المكتسبة المحصّلة بالتعلم، وحكي أن ذلك المدعي يقول: بأني لا أقدر على تصوير علم الصوفية ولا أظن أن أحدا في العالم يتكلم في العلم الحقيقي من فكر وروية دون تعلم وكسب، فقلت: كأنه ما اطلع على طرق التحصيل، وما درى أمر النفس الإنسانية وصفاتها وكيفية قبولها لآثار الغيب وعلم الملكوت، فقال صديقي:

نعم إن ذلك الرجل يقول بأن العلم هو الفقه وتفسير القرآن والكلام حسب، وليس وراءها علم وهذه العلوم لا تتحصل إلا بالتعلم والتفقه، فقلت: نعم، فكيف يعلم علم التفسير؟! فإن القرآن هو البحر المحيط المشتمل على جميع الأشياء،وليس جميع معانيه وحقائق تفسيره مذكورة في هذه التصانيف المشهورة بين العوام، بل التفسير غير ما يعلم ذلك المدعي، فقال ذلك الرجل: لا يعدّ التفاسير إلا التفاسير المعروفة المذكورة والمنسوبة إلى القشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم، فقلت:لقد بَعُد عن منهج الحقيقة، فإن السلمي جمع شيئا في التفسير من كلمات المحققين شبه التحقيق، وتلك الكلمات غير مذكورة في سائر التفاسير. وذلك الرجل الذي لا يعد العلم إلا الفقه والكلام. وهذا التفسير العامي كأنه ما علم أقسام العلوم وتفاصيلها ومراتبها وحقائقها وظواهرها وبواطنها، وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشيء ينكر ذلك الشيء، وذلك المدعي ما ذاق شراب الحقيقة وما اطلع على العلم اللدني فكيف يقرّ بذلك، ولا أرضى بإقراره تقليدا أو تخمينا ما لم يعرف، فقال ذلك الصديق: أريد أن تذكر طرفا من مراتب العلوم وتصحيح هذا العلم وتعزيه أنت لنفسك وتقرّ على إثباته، فقلت: إن هذا المطلوب بيانه عسير جدا،

لكن أشرع في مقدماته بحسب اقتضاء حالي وموافقة وقتي وما سنح بخاطري، ولا أريد تطويل الكلام فإن خير الكلام ما قلّ ودلّ، وسألت الله عزّ وجلّ التوفيق والإعانة وذكرت مطلوب صديقي الفاضل في هذا المفضول.



فصل في بيان شرف العلم

اعلم أن العلم تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة ، والعالم هو المحيط المدرك المتصور والمعلوم هو ذات الشيء الذي ينتقش علمه في النفس، وشرف العلم على قدر شرف معلومه، ورتبة العالم تكون بحسب رتبة العلم. ولا شك أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلها هو الله الصانع المبدع الحق الواحد، فعلمه وهو علم التوحيد أفضل العلوم وأجلها وأكملها، وهذا العلم ضروري واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] وأمر بالسفر في طلب هذا العلم فقال ﷺ: «أطلبوا

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) ، وأبو يعلى (٢٩٠٣) ، والطبراني في الأوسط(٣٤٦٢)، والبيهقي في الشعب(١٦٦٥) عن أنس -رضي الله عنه-، ولفظه عند ابن ماجه: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤة والذهب» قال المناوي في فيض القدير (٤/ ٢٦٧) : قال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا ، وقال ابن القطان لا يصح فيه شيء وأحسن ما فيه ضعيف وسكت عنه مغلطاي، وقال المصنف، أي الإمام السيوطي : جمعت له =

العلم ولو بالصين»[1] وعالم هذا العلم أفضل العلماء وبهذا السبب خصهم الله تعالى بالذكر في أجل المراتب فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فعلماء علم التوحيد بالإطلاق هم الأنبياء وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وهذا العلم وأن كان شريفًا في ذاته كاملًا في نفسه لا ينفي سائر العلوم بل لا يحصّل إلا بمقدمات كثيرة وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى مثل علم السموات والأفلاك وعلم جميع المصنوعات ويتولد عن علم التوحيد علوم أخر كما سنذكر أقسامها في مواضعها.

فاعلم أن العلم شريف بذاته من غير نظر إلى جهة المعلوم، حتى أن علم السحر شريف بذاته وان كان باطلًا، وذلك أن العلم ضد الجهل والجهل من لوازم الظُلمة والظُلمة من حيز السكون، والسكون قريب من العدم، ويقع الباطل والضلالة في هذا القسم،

=تحسين طريقًا وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه، وقال السخاوي: له شاهد عند أبي شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس، ورواه عنه نحو عشرين تابعيًا.

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٣٠)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١١٨) والبيهقي في الشعب (١٦٦٣) عن أنس -رضي الله عنه-، وقال البيهقي: هذا الحديث شبه مشهور وإسناده ضعيف وقد روى من أوجه كلها ضعيفة.

فإذًا الجهل حكمه حكم العدم، والعلم حكمه حكم الوجود، والوجود خير من العدم، والهداية والحق والحركة والنور كلها في سلك الوجود ، فإذا كان الوجود أعلى من العدم فالعلم أشرف من الجهل، فإن الجهل مثل العمى والظُلمة، والعلم مثل البصر والنور، وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور.

وصرح سبحانه بهذه الإشارات فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] ، فإذا كان العلم خيرًا من الجهل والجهل من لوازم الجسم والعلم من صفات النفس فالنفس أشرف من الجسم، وللعلم أقسام كثيرة نحصيها في فصل آخر. وللعالم في طلب العلم طرق عديدة نذكرها في فصل آخر.

والآن لا يتعين عليك بعد معرفة فضل العلم إلا معرفة النفس التي هي لوح العلوم ومقرها ومحلها، وذلك أن الجسم ليس بمحل للعلم لأن الأجسام متناهية ولا تسع كثرة العلوم بل لا يحتمل إلا النقوش والرقوم[1]، والنفس قابلة لجميع العلوم من غير ممانعة ولا مزاحمة وملال وزول، ونحن نتكلم في شرح النفس على سبيل الاختصار.

(١) جمع رقم: وهو الكتابة قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين:٩]

فصل في شرح النفس والروح الإنساني

اعلم أن الله تعالى خلق الإنسان من شيئين مختلفين، أحدهما: الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابي الذي لا يتم أمره إلا بغيره، والآخر: هو النفس الجوهري المفرد المنير المدْرِك الفاعل المحْرِك المتمم للآلات والأجسام، والله تعالى ركب الجسد من أجزاء الغذاء ورباه بأجزاء الرماد، ومهد قاعدته وسوى أركانه، وعين أطرافه، وأظهر جوهر النفس من أمره الواحد الكامل المكمل المفيد، ولا أعني بالنفس القوة الطالبة للغذاء ولا القوة المحركة للشهوة والغضب، ولا القوة الساكنة في القلب المولدة للحياة والمبرزة للحس والحركة من القلب إلى جميع الأعضاء، فإن هذه القوة تسمى روحا حيوانيا والحس والحركة والشهوة والغضب من جنده، وتلك القوة الطالبة للغذاء الساكنة في الكبد بالتصرف، يقال لها روحا طبيعيا، والهضم والدفع من صفاتها، والقوة المصورة والمولدة والنامية وباقي القوة المنطبعة كلها خدام للجسد، والجسد خادم الروح الحيواني لأنه يقبل القوى عنه، ويعمل بحسب تحريكه، وإنما أعني بالنفس، ذلك الجوهر الكامل الفرد الذي ليس

من شأنه إلا التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والرؤية، ويقبل جميع العلوم، ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد، وهذا الجوهر رئيس الأرواح وأمير القوى، والكل يخدمونه ويمتثلون أمره، وللنفس أعني هذا الجوهر عند كل قول اسم خاص، فالحكماء يسمون هذا الجوهر: النفس الناطقة، والقرآن يسميه: النفس المطمئنة والروح الأمري، والمتصوفة تسميه القلب، والخلاف في الأسامي والمعنى واحد لا خلاف فيه، فالقلب والروح عندنا والمطمئنة كلها أسامي النفس الناطقة، والنفس الناطقة هي الجوهر الحي الفعال المدرك، وحيثما نقول الروح المطلق، أو القلب، فإنما نعني به هذا الجوهر. والمتصوفة يسمون الروح الحيواني نفساً، والشرع ورد بذلك فقال: «أعدي عدوك نفسك»[1]، وأطلق الشارع اسم النفس، بل أكدها بالإضافة فقال: «نفسك التي بين جنبيك»، وإنما أشار بهذه اللفظة إلى القوة الشهوانية والغضبية فإنهما ينبعثان عن القلب الواقف بين الجنبين، فإذا عرفت فرق الأسامي، فاعلم أن الباحثين يعبرون عن هذا الجوهر النفيس بعبارات مختلفة، ويرون فيها آراء متفاوتة.

---

(1) أخرجه البيهقي في الزهد (٣٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

والمتكلمون المعروفون بعلم الجدل يعدون النفس جسمًا، ويقولون: إنه جسم لطيف، بإزاء هذا الجسم الكثيف، ولا يرون الفرق بين الروح والجسد إلا باللطافة والكثافة، وبعضهم يعد الروح عرضًا، وبعض الأطباء يميل إلى هذا القول، وبعضهم يرى الدم روحًا وكلهم قنعوا بقصور نظرهم على تخيلهم وما طلبوا.

القسم الثالث؛ واعلم أن الأقسام ثلاثة: الجسم والعرض والجوهر الفرد، فالروح الحيواني جسم لطيف كأنه سراج مشعل موضوع في زجاجة القلب، أعني ذلك الشكل الصنوبري المعلق في الصدر والحياة ضوء السراج، والدم دهنه، والحس والحركة نوره، والشهوة حرارته، والغضب دخانه، والقوة الطالبة للغذاء الكائنة في الكبد خادمه وحارسه ووكيله؛ وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات، والإنسان هو جسمه وآثاره أعراض، وهذا الروح لا يهتدي إلى العلم ولا يعرف طريق المصنوع ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن، لو يزيد الدم ينطفئ ذلك السراج بزيادة الحرارة، ولو ينقص ينطفئ بزيادة البرودة وانطفاؤه سبب موت البدن، وليس خطاب الباري سبحانه ولا تكليف الشارع لهذا الروح لأن البهائم وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع، والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده

زائدا خاصا به، وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة، وهذا الروح ليس بجسم ولاعَرَض لأنه من أمر اللهّ تعالى كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥] وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وأمْرُ الباري تعالى ليس بجسمٍ ولا عرض، بل قوة إلهية مثل العقل الأول واللوح والقلم، وهي الجواهر المفردة المفارقة للمواد، بل هي أضواء مجردة معقولة غير محسوسة، والروح والقلب بلسانا من قِبَل تلك الجواهر، ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت، بل يفارق البدن وينتظر العود إليه في يوم القيامة كما ورد في الشرع وقد صحّ في العلوم الحكمية بالبراهين القاطعة، والدلائل الواضحة أن الروح الناطق ليس بجسم ولا عرض، بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد، ونحن نستغني عن تكرير البرهان وتعديد الدلائل لأنها مقررة مذكورة. فمن أراد تصحيحها فليرجع إلى الكتب اللائقة بذلك الفن. فأما في طريقنا فلا نأتى بالبرهان، بل نعوّل على العيان ونعتمد على رؤية الإيمان، ولما أضاف اللهّ تعالى الروح إلى أمره وتارة إلى عزته، فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، وقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥].

وقال: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢]. والله تعالى أجلّ من أن يضيف إلى نفسه جسما أو عَرَضًا لخستهما وتغيرهما وسرعة زوالهما وفسادهما، والشارع ﷺ قال: «الأرواح جنود مجنّدة»[1] ، وقال: «أرواح الشّهداء في حواصل طيور خُضر»[2]، والعرض لا يبقى بعد فناء الجوهر لأنه لا يقوم بذاته، والجسم يقبل التحليل، كما قيل: التركيب من المادة والصورة كما هو مذكور في الكتب، فلما وجدنا هذه الآيات والأخبار والبراهين العقلية علمنا أن الروح جوهر فرد كامل، حي بذاته يتولد منه صلاح الدين وفساده، والروح الطبيعي والحيواني وجميع القوى البدنية كلها من جنوده، وأن هذا الجوهر يقبل صور المعلومات وحقائق الموجودات من غير اشتغال بأعيانها وأشخاصها، فإن النفس قادرة على أن تعلم حقيقة الإنسانية من غير أن ترى إنسانا كما أنها علمت الملائكة والشياطين، وما احتاجت إلى رؤية أشخاصها إذ لا ينالها حواس أكثر الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨) عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٦٣٨) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) عن ابن مسعود موقوفا بألفاظ متقاربة والترمذي (١٦٤١) عن كعب بن مالك -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال قوم من المتصوفة: إن للقلب عينا كما للجسد، فيرى الظواهر بالعين الظاهرة، ويرى الحقائق بعين العقل، وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا ولقلبه عينان»[1] ، وهما عينان يدرك بهما الغيب، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا فتح عيني قلبه ليرى ما هو غائب عن بصره، وهذا الروح لا يموت بموت البدن لأن الله تعالى يدعوه إلى بابه فيقول: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر:٢٨]. وإنما هو يفارق ويعرض عن البدن، فمن أعراضه: تتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية فيسكن المتحرك فيقال لذلك السكون: موت؛ وأهل الطريقة-أعني الصوفية- يعتمدونَ على الروح والقلب أكثر اعتمادا منهم على الشخص. وإذا كان الروح من أمر الباري تعالى فيكون في البدن كالغريب، ويكون وجهه إلى أصله ومرجعه. فينال الفوائد من جانب الأصل أكثر مما ينال من جهة الشخص إذا قَوِيَ ولم يُدنَّس بأدناس

---

(١) لم أجده حديثاً عن النبي ﷺ؛ وإنما رواه أبو نعيم في الحالة (٥/ ٢١٢) وابن عساكر(١٦/ ٢٠٠) عن خالد بن معدان، وتمامه: ما من عبد إلا وله أربع أعين: عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينيه اللتين في قلبه فيبصر بهما ما وعد بالغيب، قال: وهما غيب فأمن الغيب بالغيب، وإذا أراد الله بعبد غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]

الطبيعة. وإذا علمت أن الروح جوهر فرد وعلمت أن الجسد لا بدّ له من المكان.

والعرض لا يبقى إلا بالجوهر. فاعلم أن هذا الجوهر لا يحلّ في محل ولا يسكن في مكان، وليس البدن مكان الروح ولا محلّ القلب، بل البدن آلة الروح وأداة القلب ومركب النفس. والروح ذاته غير متّصل بأجزاء البدن ولا منفصل عنه، بل هو مقبل على البدن مفيد له مفيض عليه، وأوّل ما يظهر نوره على الدماغ لأن الدماغ مظهره الخاص اتّخذ من مقدمه حارسا. ومن وسطه وزيراً، و مدبراً، ومن آخره خزانة وخازنا، ومن جميع الأجزاء رجالًا وركبانًا، ومن الروح الحيواني خادمًا، ومن الطبيعي وكيلًا، ومن البدن مركبا، ومن الدنيا ميدانا، ومن الحياة بضاعةً ومالًا، ومن الحركة تجارة، ومن العلم ربحًا، ومن الآخرة مقصدا ومرجعا، ومن الشرع طريقة ومنهجا، ومن النفس الأمّارة حارسا ونقيبا، ومن اللوامة منبها، ومن الحواسّ جواسيس وأعوانا، ومن الدين درعًا، ومن العقل أستاذًا، ومن الحس تلميذا، والربّ سبحانه من وراء هذه كلها بالمرصاد؛ والنفس بهذه الصفة مع هذه الآلة ما أقبلت على هذا الشخص الكثيف وما اتّصلت بذاته بل تنيله الإفادة، ووجهها إلى بارئها وأمر بارئها بالاستفادة إلى أجل مسمى، فالروح لا يشتغل في مدة هذا السفر إلا بطلب العلم،

لأن العلم يكون حليته في دار الآخرة، لأن حلية المال والبنين زينة حياة الدنيا، فكما أن العين مشغولة برؤية المنظورات، والسمع مواظب على استماع الأصوات، واللسان مستعد لتركيب الأقوال، والروح الحيواني مريد اللذات الغضبية، والروح الطبيعي محب للذائذ الأكل والشرب، كذلك الروح المطمئنة. أعني القلب. لا يريد إلا العلم ولا يرضى إلا به ويتعلم طول عمره. ويتحلّى بالعلم جميع أيامه إلى وقت مفارقته، ولو قبل أمراً آخر دون العلم فإنما يقبل عليه لمصلحة البدن لا لمراد ذاته ومحبة أصله. فإذا علمت أحوال الروح ودوام بقائه وعشقه للعلم وشغفه به، فيجب عليك أن تعلم أصناف العلم فإنها كثيرة ونحن نحصيها بالاختصار.



فصل في أصناف العلم وأقسامه

اعلم أن العلم على قسمين: أحدهما شرعي، والآخر عقلي. وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها. وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

أما القسم الأول: وهو العلم الشرعي، فينقسم إلى نوعين:

أحدهما: في الأصول وهو علم التوحيد.

وهذا العلم ينظر في ذات الله تعالى وصفاته القديمة، وصفاته الفعلية، وصفاته الذاتية المتعدّدة بالأسامي على الوجه المذكور، وينظر أيضا في أحوال الأنبياء والأئمة من بعدهم والصحابة. وينظر في أحوال الموت والحياة، وفي أحوال القيامة والبعث والحشر والحساب، ورؤية الله تعالى وأهل النظر في هذا العلم يتمسكون أولًا بآيات الله تعالى من القرآن، ثم بأخبار الرسول ﷺ، ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية، وأخذوا مقدمات القياس الجدلي والعنادي؟ ولواحقها من أصحاب المنطق الفلسفي، ووضعوا أكثر الألفاظ في غير مواضعها، ويعبرون في عباراتهم بالجوهر، والعرض، والدليل،

والنظر، والاستدلال، والحجّة، ويختلف معنى كل لفظ من هذه الألفاظ عند كل قوم حتى إن الحكماء يعنون بالجوهر شيئا، والصوفية يعنون شيئا آخر، والمتكلمون شيئا، وعلى هذا المثال، وليس المراد في هذه الرسالة تحقيق معاني الألفاظ على حسب آراء القوم، فلا نشرع فيها. وهؤلاء القوم مخصوصون بالكلام في الأصول وعلم التوحيد ولقبهم: المتكلمون، فإن اسم الكلام اشتهر على علم التوحيد.

ومن علم الأصول علم التفسير: فإن القرآن من أعظم الأشياء وأبينها وأجلّها وأعزّها. وفيه من المشكلات الكثيرة ما لا يحيط بها كل عقل إلا من أعطاه اللهّ تعالى فهماً في كتابه. قال رسول اللهّ ﷺ «ما من آية من آيات القرآن إلّا ولها ظهر وبطن،ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن»[1]، وفي رواية إلى تسعة. وقال ﷺ: «لكلّ حرف من حروف القرآن حدّ ولكلّ حدّ مطلع»[2]، واللهّ تعالى أخبر في القرآن عن جميع العلوم وجلي الموجودات خفيها وصغيرها وكبيرها ومحسوسها

(١) أخرجه أبو يعلي (٥٤٠٣)، والطبراني في الكبير(١٠/ ١٠٥، رقم ١٠١٠٧) وابن حبان(٧٥) عن ابن مسعود -رضي الله عنه- ولفظه: «أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٦، رقم ٨٦٦٨) عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، موقوفاً.

ومعقولها. وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الأنعام:٥٩]. وقال تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ [ص:٢٩]. وإذا كان أمر القرآن أعظم الأمور فأي مفسر أدى حقه، وأي عالم خرج عن عهدته، نعم كل واحد من المفسرين شرع في شرحه بمقدار طاقته، وخاض في بيانه بحسب قوة عقله، وقدر كُنْه علمه، فكلهم قالوا، وبالحقيقة ما قالوا، وعلم القرآن يدل على علم الأصول والفروع والشرعي والعقلي.

ويجب على المفسر أن ينظر في القرآن من وجه اللغة، ومن وجه الاستعارة، ومن وجه تركيب اللفظ، ومن وجه مراتب النحو، ومن وجه عادة العرب، ومن وجه أمور الحكماء، ومن وجه كلام المتصوفة حتى يقرب تفسيره إلى التحقيق، ولو يقتصر على وجه واحد ويقنع في البيان بفن واحد لم يخرج عن عهدة البيان، ويتوجه عليه حجّة الإيمان وإقامة البرهان.

ومن علم الأصول أيضا علم الأخبار: فإن النبيّ ﷺ أفصح العرب والعجم، وكان معلما يوحى إليه من قبل اللهّ تعالى، وكان عقله محيطا بجميع العلويات والسفليات، فكلّ كلمة من كلماته بل لفظة من ألفاظه يوجد تحتها بحار الأسرار وكنوز الرموز، فعلم أخباره

ومعرفة أحاديثه أمر عظيم، وخطب جليل. لا يقدر أحد أن يحيط بعلم الكلام النبوي إلا أن يهذب نفسه بمتابعة الشارع، ويزيل الاعوجاج عن قلبه بتقويم شرع النبيّ ﷺ.

ومن أراد أن يتكلم في تفسير القرآن وتأويل الأخبار ويصيب في كلامه. فيجب عليه أولًا تحصيل علم اللغة والتبحر في فن النحو، والرسوخ في ميدان الإعراب، والتصرف في أصناف التصريف، فإن علم اللغة سُلَّم ومرقاة إلى جميع العلوم، ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم. فإن من أراد أن يصعد سطحاً: عليه تمهيد المِرقاة أولًا ثم بعد ذلك يصعد، وعلم اللغة وسيلة عظيمة، ومرقاة كبيرة، فلا يستغني طالب العلم عن أحكام اللغة، فعلم اللغة أصل الأصول، وأوّل علم اللغة معرفة الأدوات، وهي بمنزلة الكلمات المفردة، وبعدها معرفة الأفعال مثل الثلاثي والرباعي وغيرهما، ويجب على اللغوي أن ينظر في أشعار العرب. و أولاها وأتقنها أشعار الجاهلية. فإن فيها تنقيحًا للخاطر وترويحًا للنفس؛ ومع ذلك الشعر والأدوات والأسامي يجب تحصيل علم النحو، فإنه لعلم اللغة بمنزلة ميزان القبّان للذهب والفضة. و المنطق لعلم الحكمة والعروض للشِعر، والذراع للأثواب، والمكيال للحبوب، وكل شيء لا يوزن

بميزان لا يتبين فيه حقيقة الزيادة والنقصان. فعلم اللغة سبيل إلى علم التفسير والأخبار، وعلم القرآن والأخبار دليل على علم التوحيد، وعلم التوحيد هو الذي لا تنجو نفوس العباد إلّا به ولا تتخلص من خوف المعاد إلّا به، فهذا تفصيل علم الأصول.



النوع الثاني
من العلم الشرعي هو علم الفروع

وذلك أن العلم إما أن يكون عِلميًا، وإما أن يكون عَمليًا، وعلم الأصول هو العلمي، وعلم الفروع هو العملي، وهذا العلم العملي يشتمل على ثلاثة حقوق:

أوّلها: حقّ الله تعالى: وهو أركان العبادات، مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، والأذكار، والأعياد، والجمعة، وزوائدها من النوافل والفرائض.

و ثانيها: حق العباد: وهو أبواب العادات ويجري في وجهين:

أحدهما: المعاملة مثل البيع، والشركة، والهبة، والقرض والدَّيْن، والقصاص، وجميع أبواب الديات.

والوجه الثاني: المعاقدة مثل النكاح، والطلاق، والعتق، والرق، والفرائض، ولواحقها، ويطلق اسم الفقه على هذين الحقين. و علم الفقه علم شريف مفيد عام ضروري لا يستغني الناس عنه لعموم الضرورة إليه.

وثالثها: حقّ النفس، وهو علم الأخلاق، والأخلاق إما مذمومة ويجب رفضها وقطعها، وإما محمودة ويجب تحصيلها وتحلية النفوس بها، والأخلاق المذمومة والأوصاف المحمودة مشهورة في كتاب الله تعالى، وأخبار الرسول ﷺ من تخلّق بواحد منها دخل الجنة.

وأما القسم الثاني: من العلم فهو العلم العقلي:

وهو علم معضل مُشْكل يقع فيه خطأ وصواب. وهو موضوع في ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: وهو أوّل المراتب العلم الرياضي والمنطقي. أمّا الرياضي: فمنه الحساب وينظر في العدد، والهندسة وهي علم المقادير والأشكال، والهيئة أعني علم الأفلاك والنجوم وأقاليم الأرض، وما يتصل بها، ويتفرع عنه: علم النجوم وأحكام المواليد والطوالع، ومنه علم الموسيقي الناظر في نسب الأوتار، وأما المنطقي: فينظر في طريق الحدّ والرسم في الأشياء التي تُدْرك بالتصور، وينظر من طريق القياس والبرهان في العلوم التي تنال بالتصديق، ويدور علم المنطق على هذه القاعدة يبتدئ بالمفردات ثم بالمركبات، ثم بالقضايا، ثم بالقياس، ثم بأقسام القياس، ثم مطلب البرهان وهو نهاية علم المنطق.

المرتبة الثانية: وهو أوسطها العلم الطبيعي، وصاحبه ينظر في الجسم المطلق، وأركان العالم وفي الجواهر والأعراض، وفي الحركة والسكون، وفي أحوال السماوات والأشياء الفعلية والانفعالية، ويتولد من هذا العلم النظر في أحوال مراتب الموجودات، وأقسام النفوس والأمزجة، وكمية الحواس، وكيفية إدراكها لمحسوساتها، ثم يؤدي إلى النظر في علم الطب، وهو علمَ الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات وما يتعلق بها، ومن فروعه علم الآثار العلوية، وعلم المعادن، ومعرفة خواصّ الأشياء، وينتهي إلى علم صنعة الكيمياء وهي معالجة الأجساد المريضة في أجواف المعادن.

المرتبة الثالثة: وهي العليا، هي النظر في الموجود، ثم تقسيمه إلى الواجب والممكن، ثم النظر في الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه وترتب ظهور الموجودات عنه، ثم النظر في العلويات والجواهر المفردة والعقول المفارقة والنفوس الكاملة، ثم النظر في أحوال الملائكة والشياطين، وينتهي إلى علم النبوات وأمر المعجزات وأحوال الكرامات، والنظر في أحوال النفوس المقدسة، وحال النوم واليقظة ومقامات الرؤيا، ومن فروعه علم الطلسمات

والنيرنجات[1] وما يتعلّق بها، ولهذه العلوم تفاصيل وأعراض ومراتب، تحتاج إلى شرح جلي ببرهان بهي ولكن الاقتصار أولى.

***

(١) النيرنجات: اسم علم وهو فارسي معرب يبحث في غرائب خواص الامتزاجات أو التخيلات والأخذ بالعيون ولذا قيل: إنها قريبة أو متحطة من الشعبذة التي عرفها بالحركات السريعة التي تترتب عليها الأفعال العجيبة بحيث يخفي على الحس الفرق بين الشيء وشبهه فيحكم الرائي له بخلاف الواقع، وهو فرع من فروع علم السحر، وتعلمه حرام.

فصل في علم الصوفية

اعلم أن العلم العقلي مفرد بذاته ويتولّد منه علم مركب يوجد فيه جميع أحوال العِلْمين المفردين، وذلك العلم المركب علم الصوفية، وطريقة أحوالهم، فإن لهم علمًا خاصًا بطريقة واضحة مجموعة من العلمين.

وعلمهم يشتمل على: الحال، والوقت، والسماع، والوجد والشوق، والسكر والصحو، والإثبات، والمحو، والفقر، والفناء، والولاية، والإرادة، والشيخ، والمريد، وما يتعلق بأحوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات. ونحن نتكلم في هذه العلوم الثلاثة في كتاب خاص إن شاء اللهّ تعالى.

والآن ليس قصدنا إلا تعديد العلوم وأصنافها في هذه الرسالة، وقد اختصرناها وعددناها على طريق الاختصار والإيجاز، ومن أراد الزيادة وشرح هذه العلوم فليرجع إلى مطالعة الكتب. ولما انتهى الكلام في بيان تعديد أصناف العلوم، فاعلم أنت يقيناً أن كل فن من هذه الفنون، وكل علم من هذه العلوم، يستدعي عدة شرائط لينتقش في نفوس الطالبين، فبعد تعديد العلوم يجب عليك أن تعرف طرق التحصيل، فإن لتحصيل العلم طرقًا معينة نحن نفصلها إن شاء اللهّ.

فصل في بيان التحصيل للعلوم

اعلم أن العلم الإنساني يحصل من طريقين:

أحدهما: التعلم الإنساني، والثاني: التعلم الرباني.

أما الطريق الأول: فطريق معهود، ومسلك محسوس، يقرّ به جميع العقلاء، وأما التعلم الرباني فيكون على وجهين، أحدهما: من خارج وهو التحصيل بالتعلم، والآخر: من داخل وهو الاشتغال بالتفكر، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر، فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئي، والتفكر استفادة النفس من النفس الكلي. والنفس الكلي أشد تأثيرا وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء، والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض، والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل. والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل، فنفس المتعلم تتشبه بنفس المعلم وتتقرب إليه بالنسبة، فالعالم بالإفادة كالزارع، والمتعلم بالاستفادة كالأرض. والعلم الذي هو بالقوة كالبذر، والذي بالفعل كالنبات.، فإذا كملت

نفس المتعلم تكون كالشجرة المثمرة أو كالجوهر الخارج من قعر البحر، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة، وتحمل المشقة والتعب وطلب الفائدة، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم، فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ما لا تجد نفس الجامد بتعلم سنة، فإذن بعض الناس يُحصِّلون العلوم بالتعلم وبعضهم بالتفكر، والتعلم يحتاج إلى التفكر، فإن الإنسان لا يقدر أن يتعلم جميع الأشياء: الجزئيات والكليات وجميع المعلومات، بل يتعلم شيئا ويستخرج بالتفكر من العلوم شيئًا، وأكثر العلوم النظرية والصنائع العملية استخرجها نفوس الحكماء بصفاء ذهنهم، وقوة فكرهم، وحدّة حدسهم من غير زيادة تعلم وتحصيل، ولولا أن الإنسان يستخرج بالتفكر شيئًا، من معلومه الأوّل لكان يطول الأمر على الناس، ولما كانت تزول ظلمة الجهل عن القلوب، لأن النفس لا تقدر أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية بالتعلم، بل بعضها بالتحصيل وبعضها بالنظر كما يرى عادات الناس، وبعضها يستخرج من ضميره بصفاء فكره، وعلى هذا جرت عادة العلماء وتمهدت قواعد العلوم. حتى أن المهندس لا يتعلم جميع ما يحتاج إليه في طول

عمره، بل يتعلم كليات علمه وموضوعاته، ثم بعد ذلك يستخرج ويقيس.

و كذلك الطبيب لا يقدر أن يتعلم جزئيات أدواء الأشخاص وأدويتهم بل يتفكر في معلوماته الكلية، ويعالج كل شخص بحسب مزاجه. وكذلك المنجم يتعلم كليات النجوم، ثم يتفكر ويحكم بالأحكام المختلفة. وكذلك الفقيه والأديب. وهكذا إلى بدائع الصنائع، فواحد وضع آلة الضرب وهو العود بتفكره، وآخر استخرج من تلك الآلة آلة أخرى؛ وكذلك جميع الصنائع البدنية والنفسانية أوائلها محصلة من التعلم والبواقي مستخرجة من التفكر، وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكر وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب، فينشرح قلبه وتنفتح بصيرته، فيُخْرِج ما في نفسه من القوة إلى الفعل من غير زيادة طلب وطول تعب.

الطريق الثاني: وهو التعليم الرباني، على وجهين:

الأول: إلقاء الوحي: وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأماني الفانية. وتُقْبِل بوجهها على بارئها ومنشئها، وتتمسك بجود مبدعها، وتعتمد على إفادته وفيض نوره

والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كليًا وينظر إليها نظرًا إلهيا ويتخذ منها لَوْحاً ومن النفس الكلي قلمًا وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلي كالمعلم. والنفس القدسية كالمتعلم، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]. الآية. فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق لأن حصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة.

وبيان هذا يوجد في قصّة آدم عليه السلام- والملائكة، فإنهم تعلموا طول عمرهم، وحصلوا بفنون الطرق كثيرا من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات، وآدم عليه السلام ما كان عالما لأنه ما تعلم وما رأى معلما فتفاخرت الملائكة وتجبروا وتكبروا فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة:٣٠]. ونعلم حقائق الأشياء، فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه، وأخرج قلبه عن جملة المكونات وأقبل بالاستعانة على الربّ تعالى فعلّمه جميع الأسماء: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة:٣١]. فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة:٣١] فصغر حالهم عند آدم. وقلّ علمهم وانكسرت سفينة

جبروتهم فغرقوا في بحر العجز ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢]. فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣]. فأنبأهم آدم عليه السلام عدّة مكنونات العلم ومستترات الأمر، فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيبي المتولّد عن الوحي أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة، وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحقّ الرسل، وأغلق الله باب الوحي من عهد سيدنا محمد ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم وكان يقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1]، وقال لقومه: «أنا أعلمكم وأخشاكم من الله تعالى»[2]، وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى لأنه حصل عن التعلم الرباني، وما اشتغل قطّ بالتعلم والتعليم الإنساني. قال تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥].

---

(١) قال الزركشي في اللآلىء المنثورة في الأحاديث المشهورة ص ١٦٠، معناه صحيح أيضا لكنه لم يأت من طريق يصح، وقد ذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهية في ذيل حديث: «وفد بني نهد» وضعفه فقال: هو حديث لا يصح في إسناده ضعفاء ومجاهيل. وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة للعسكري في الأمثال عن علي كرم الله وجهه، وضعفه أيضًا.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

الوجه الثاني: هو الإلهام، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها والإلهام أثر الوحي، فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والإلهام هو تعريضه؛ والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً، والذي يحصل عن الإلهام يسمى علما لَدُنِّياً.

والعلم اللدني: هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صافٍ فارغٍ لطيفٍ، وذلك أن العلوم كلها حاصلة معلومة في جوهر النفس الكلية الأولى، الذي هو في الجواهر المفارقة الأولية المحضة بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليه السلام. وقد بيّن أن العقل الكلي أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى الباري تعالى من النفس الكلية. والنفس الكلية أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات، فمن إفاضة العقل الكلي يتولّد الإلهام، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام؛ فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء. فأما علم الوحي فكما أن النفس دون العقل فالولي دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي، فهو ضعيف بنسبة الوحي: قوي بإضافة الرؤيا، والعلم علم الأنبياء والأولياء.

فأما علم الوحي: فخاص بالرسل موقوف عليهم، كما كان لآدم وموسى عليهما السلام وإبراهيم ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم وغيرهم من الرسل، وفرقٌ بين الرسالة والنبوة. فالنبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين، وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب.

والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه، فقال: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥]. وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "أدخل رسول الله ﷺ[1] [لسانه] في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب، وقال: لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم و لأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل القرآن بقرآنهم." وهذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنساني، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدني، وقال أيضا -رضي الله

(١) في الأصل المطبوع: "أدخلت لساني في فمي، والتصويب من مرآة العقول للمجلسي (٣/ ٧٩)" نقلا عن الرسالة اللدنية للغزالي.

عنه- يحكي عن عهد موسى عليه السلام إن شرح كتابه أربعون حملًا، فلو يأذن الله في شرح معاني الفاتحة لأشرع فيها حتى تبلغ مثل ذلك، يعني أربعين وقرًا، وهذه الكثرة والسعة والانفتاح في العلم لا يكون إلا للدُنيًّا إلهيا سماويا.

فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التي هي اللوح، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معاني تلك المكنونات، فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن يشاء من عباده. وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيمًا. لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩]. وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلّمون كثيراً ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلًا.

واعلم أن الوحي إذا انقطع، وباب الرسالة إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة وتكميل الدين، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة. فأما باب الإلهام فلا

ينسدّ، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير؛ وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هذه الوساوس وانهماكهم في هذه الشهوات . فالله تعالى أغلق باب الوحي وهو آية العباد، وفتح باب الإلهام رحمةً وهيأ الأمور ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب.



فصل في مراتب النفوس في تحصيل العلوم

اعلم أن العلوم مركوزة في جميع النفوس الإنسانية وكلها قابلة لجميع العلوم وإنما يفوت نفسا من النفوس حظها منه بسبب طارئ وعارض يطرأ عليها من خارج، كما قال النبيّ ﷺ: «خلق الناس حُنفاء فاجتالتهم الشياطين»[1] وقال ﷺ: " كلّ مولود يولد على الفطرة...»[2] الحديث فالنفس الناطقة الإنسانية أهل لإشراق النفس الكلية عليها ومستعدة لقبول الصور المعقولة عنها بقوة طهارتها الأصلية وصفاتها الأولى، ولكن يمرض بعضها في هذه الدنيا ويمتنع عن إدراك الحقائق بأمراض مختلفة وأعراض شتى، ويبقى بعضها على الصحة الأصلية بلا مرض وفساد. يقبل أبدا ما دامت حية؛ والنفوس الصحيحة هي النفوس النبوية القابلة للوحي والتأييد، القادرة على إظهار المعجزة والتصرف في عالم الكون والفساد. فإن تلك النفوس باقية على الصحّة الأصلية، وما تغيّرت أمزجتها بفساد الأمراض

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) مطولا عن عياض بن حمار -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٣)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وعلل الأعراض فصار الأنبياء أطباء النفوس ودعاة الخلق إلى صحة الفطرة.

وأما النفوس المريضة في هذه الدنيا الدنيئة فصارت على مراتب بعضهم تأثر بمرض المنزل تأثراً ضعيفاً. ودقّ غمام النسيان في خواطرهم فيشتغلون بالتعلّم. ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر. وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتعلّم، ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر، وبعضهم يتعلمون طول عمرهم، ويشتغلون بالتحصيل والتصحيح جميع أيامهم، ولا يفهمون شيئا لفساد أمزجتهم، لأن المزاج إذا فسد لا يقبل العلاج، وبعضهم يتذكرون وينسون ويرتاضون ويدلون أنفسهم ويجدون نورًا قليلا وإشراقًا ضعيفًا، وهذا التفاوت إنما ظهر من إقبال النفوس على الدنيا واستغراقها بحسب قوتها وضعفها كالصحيح إذا مرض. والمريض إذا صحّ وهذه العقدة إذا انحلت تُقّر النفوس بوجود العلم اللدني وتعلم أنها كانت عالمة في أول الفطرة وصافية في ابتداء الاختراع، وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف، والإقامة في هذا المنزل الكدر والمحل المظلم، وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم. ولا إيداع العقل للمفقود، بل إعادتها العلم الأصلي الغريزي وإزالة طريان المرض بإقبالها على زينة

الجسد وتمهيد قاعدته ونظم أساسه، والأب المحب المشفق على ولده إذا أقبل على رعاية الولد، واشتغل بمهماته ينسى جميع الأمور ويكتفي بأمر واحد وهو أمر الولد، فالنفس لشدة شغفها وشفقتها أقبلت على هذا الهيكل، واشتغلت بعمارته ورعايته والاهتمام بمصالحه، واستغرقت في بحر الطبيعة بسبب ضعفها وجزئيتها، فاحتاجت في أثناء العمر إلى التعلم طلباً لتذكار ما قد نسيت وطمعًا في وجدان ما قد فقدت، وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما في ضميرها إلى الفعل طلبًا لتكميل ذاتها ونيل سعادتها، وإذا كانت النفوس ضعيفة لا تهتدي إلى حقيقة جوهريتها تتمسك وتعتصم بمعلم مشفق عالم، وتستغيث به لعينها على طلب مرادها ومأمولها، كالمريض الذي يكون جاهلاً بمعالجته ويعلم أن الصحة الشريفة محمودة مطلوبة. فيرجع إلى طبيب مشفق، ويعرض حاله عليه. ويأوي إليه ليعالجه ويزيل عنه مرضه، وقد رأينا عالما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر فتعرض نفسه عن جميع العلوم وينسى معلوماته وتلتبس عليه، ويستتر في حافظته وذاكرته جميع ما حصل في سابق عمره وماضي أيامه. فإذا صحّ و عاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه وترجع النفس إلى معلوماتها. فتتذكر ما قد نسيت في أيام المرض. فعلمنا أن العلوم ما فنيت وإنما نُسيت وفرقٌ بين المحو والنسيان بالناس. فإن المحو فناء النقوش والرسوم. والنسيان التباس النقوش،

فيكون كالغمام أو السحاب الساتر لنور الشمس عن أبصار الناظرين، لا كالغروب الذي هو انتقال الشمس من فوق الأرض إلى أسفل. فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة وعرفتْ في بدء الطهارة. فإذا عرفت السبب والمراد من التعلم وحقيقة النفس وجوهرها: فاعلم أن النفس المريضة تحتاج إلى التعلم وإنفاق العمر في تحصيل العلوم فأما النفس التي يخف مرضها وتكون علّتها ضعيفة وشرّها دقيقًا وغمامها رقيقًا ومزاجها صحيحا، فلا تحتاج إلى زيادة تعلم وطول تعب بل يكفيها أدنى نظر وتفكر، لأنها ترجع به إلى أصلها، وتقبل على بدايتها وحقيقتها وتطلع على مخفياتها فيخرج ما فيها من القوة إلى الفعل، ويصير ما هو مركوز فيها حلية لها، فيتم أمرها ويكمل شأنها، وتعلم أكثر الأشياء في أقل الأيام، وتعبر عن المعلومات بحسن النظام، وتصير عالمة كاملة متكلمة تستضيء بإقبال على النفس الكلية وتفيض باستقبال على النفس الجزئية، وتتشبه من طريق العشق بالأصل وتقطع عرق الحسد وأصل الحقد وتعرض عن فضول الدنيا وزخارفها؛ وإذا وصلت إلى هذه المرتبة فقد علمت ونجت وفازت، فهذا هو المطلوب لجميع الناس.

***

فصل في حقيقة العلم اللدني وأسباب حصوله

اعلم أن العلم اللدني وهو سريان نور الإلهام يكون بعد التسوية كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ [الشمس:7]. وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها.

والثاني: الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة، فإن النبيّ ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة، فقال: « من عَمِلَ بما عُلِّم أورثه الله علم ما لم يعلم»[1]. وقال ﷺ: « من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2].

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (10/ 15) عن أنس -رضي الله عنه-، وقال أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه وهذا الحديث لا يُحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية (5/ 189) عن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه-، والقضاعي في مسند الشهاب(466) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المبارك في الزهد (1004) عن مكحول مرسلاً.

والثالث: التفكر، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكر في معلوماتها بشروط الفكر ينفتح عليها باب الغيب، كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التصرف ينفتح عليه أبواب الربح، وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب، وتنفتح روزنة[1] من عالم الغيب في قلبه، فيصير عالمًا كاملًا عاقلًا مُلْهَمًا مؤيَّدا، كما قال ﷺ: "تفكُّر ساعة خير من عبادة ستّين سنة"[2] وشرائط التفكر نحصيها في رسالة أخرى، إذ بيان التفكر وكيفيته وحقيقته أمر مبهم يحتاج إلى زيادة شرح وتفسير بعون الله تعالى.

والآن نختم هذه الرسالة، فإن في هذه الكلمات كفاية لأهلها: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: ٤٠]. والله وليّ المؤمنين وعليه التكلان، وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وبه ثقتي في كل آن وحين والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

(١) أي نافذة، أصلها فارسي معرب.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٩)، وأحمد في الزهد(٧٥٤) عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- من قوله، ولفظه: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

الفهرس

***